من التاريخ الإسلامي

ثلاثون ألف دينار!

للأستاذ زكي الطنطاوي

سرى في المدينة أن قد سال العقيق، فانتقلت المدينة بمساكنها وساكنيها، وزهوها وكبريائها، ولهوها وغنائها، وترفها ونعمائها، حتى استقرت في العقيق. ولقد كانت المدينة على عهد الخلفاء من بني أمية قلب الدولة الذي يخفق بالحب والشعر، كما كانت الشام رأسها الذي يفكر في السياسة والملك، والعراق يدها التي تلوّح بعلم (المعارضة)، وتهزّ سيف الثورة. وذلك أن فتيان قريش وشباب الأنصار ثقل عليهم المال الذي حمله آباؤهم الفاتحون الذين ورثوا كنوز كسرى وقيصر، ما حوى القصر الأبيض في المدائن، وما اشتملت عليه قصور الشام الباذخ، وكثر في أيديهم حتى ما يدرون فيم ينفقونه ... وكان من سياسة دمشق أن تقصيهم عن الولايات والأعمال، فاتسع عليهم الوقت حتى ما يعلمون بم يملؤونه ... فانصرفوا إلى تزجية الأيام، وانتهاب اللذائذ فجعلوا الحجاز دارة اللهو والترف ومثابة الشعر والغناء، وناهيك بالشباب والفراغ والجدة إذا اجتمعت على قوم من الأقوام؟!

وكانت ليلة مشرقة غسل البدر بنوره ظلماءها وأحالها مثل الغادة الناعسة بغلالتها البيضاء، ثم ذهب يغتسل في العقيق، فطفا ضياؤه على وجهه، يعانق قطرانه ويراقص أمواجه الصغيرة، وكان منظراً عجباً، تحسب معه أن الوادي لا يجري بالماء، وإنما يجري فضة سائلة، ونوراً مذاباً ... وكان الناس منثورين في كل مكان، في القصور الشمّ التي يفيض بها الوادي، وتمتلئ بها التلال والصخور، وعلى سفوح الربا، وذُرا الهضاب، وجوانب الحرّة وفرش الرمال، حلقاً يستمعون إلى مغنٍّ أو شاعر، أو يديرون بينهم أطايب الحديث، أو يأكلون ويشربون، أو يلهون ويلعبون، ولم يكن فيهم إلا من ملأ الفرح قلبه وغمرت السعادة فؤاده. أما النساء فقد اعتزلن جانباً، يأخذن حظهن من ليالي العقيق، وقد بدوْن في شعاع القمر بثيابهن الملونة الزاهية، كالروض الزاهر الفاتن بكل ساحر أخاذ من الورد والياسمين والنرجس والبنفسج والزهر من من كل شكل ولون ... أما عطر الروض، فكان يفوح من أعطافهن وشعورهن وثيابهن الهفهافة..

ذلك هو العقيق!

كم شهد من أعراس الحياة ومباهجها! كم جال في أرجائه عمر بن أبي ربيعة ينضح حواشيه بشعره المطر الخالد! كم غنى فيه معبد وابن سريج ومالك بن أبي السمح وعزة الميلاء، فاستفاضت ألحانهم على صفحة الماء، وشطئان الأفق، وطفت على وجه النسيم فانتشت منها الطبيعة، وسكرت الجبال والربا، وسكر منها شعاع القمر فضلّ طريقه مترنحاً في مسالك الجو... كم رأى العقيق من العلماء الزاهدين كعروة ومالك، والسمحاء الأكرمين كابن جعفر وسعيد بن العاص، والمجان والمخنثين كأشعب وطويس والدلال! كم كتب في العقيق من تاريخنا الأدبي والفني! كم ألهم شعراءنا رائعات الشعر ومعجزات القصيد!

* * *

إذا جلت تلك الليلة أنحاء العقيق، رأيت على

طرف الحرة مما يلي بئر عروة وقصره ، حيث تنحدر الرمال الطرية حتى تبلغ الماء وتدلى فيه أقدامها ... رأيت سرباً من الظباء الفاتنات يتدافعن ويتراششن بالماء ، وهن يتصايحن ويضحكن فرحات عابثات ، حتى إذا نمن جلسن على الرمل يتأملن صفحة الماء — وللماء الجارى فى الحجاز سحر ليس للفرات مثله ولا للنيل — وينظرن مأخوذات بجمال هذه الليلة وفتونها ، وكنّ يتلفتن أثناء الحديث كأنهن يرقبن من يطلع عليهن من الثنية ، فلما طال الانتظار قالت واحدة منهن :

— لقد طال غياب سهيلة ، فياليت شعرى ماذا عاقها عنا هذه الليالى المقمرات ؟

فردت عليها فتاة سمراء قد تلفعت بثوب من الحرير الأحمر :

— ألا تدرين ماذا عاقها ؟ لقد شغلها هوى فرّوخ يا حبيبتى ، لقد خسرنا سهيلة إلى الأبد !

— ولم يا أمينة ؟ أهى أول فتاة تزوجت ؟ كلنا عرف الزواج ، فما قصرنا فى حق الرجل ، ولا أهملنا حق أنفسنا

فأجابت أمينة ضاحكة :

— ولكن ما كل زوج فرّوخ ... أرأيت إلى جماله وشبابه ؟ إن له فوق الجمال والشباب ثلاثين ألف دينار ، أفليس من حق سهيلة أن تنسى معه العقيق ولياليه المقمرات ؟

— إن تنس العقيق ، فليس لها أن تنسى صويحبات صباها

— لو كنت مكانها لنسيت أمك وأباك . إن للحب سكرة ، وللمال مثلها ، فأنى لسهيلة أن تصحو من سكرتين ؟

فقالت فتاة من طرف المجلس قد آلمها غياب سهيلة :

— لتكن قد وجدت كنزاً ، أفيطير هذا الكنز من يدها إذا هى فارقت منزلها ليلة ؟ لم يبق فى المدينة أحد إلا أم العقيق هذه الليلة ، أفتبقى سهيلة فى عزلتها الموحشة ، وهى الفتاة اللعوب ؟ لا . لا . إني لا أستطيع أن أفهم هذا .

قالت أمينة :

— إنك لا تستطيعين أن تفهمى ، مسكينة أنت يا رفيدة .. تقولين إنها في عزلة ؟ إنها فى جنة الحب يا صديقتى ، إن الدنيا على سعتها أضيق من هذا العشّ الذى تعيش فيه مع من تحبّ ...

* * *

وكان الفتيات في غمرة الحديث حينما مرّ بهن فارس يحمل لأمّته وسلاحه ، قد أرخى عمته وتلثم فلم يعرفن من هو وإنما نظرن إليه وهو يخترق جماعات الناس حتى جاوز الجماء وغاب وسط النخيل فلم يحفلنه ولم يأبهن له ... وكان ذلك فروخ زوج سهيلة ...

وكان فروخ قد عزف عن اللهو ، ورغب عن المتع ، فتلفت إلى وجهة أخرى من وجهات الحياة فى العصر الأموى ، إلى حياة الجد ، حياة الجهاد فى سبيل الله . وكان جيش المسلمين يسيح فى الأرض يغمرها من كل جانب ، كأنه البحر ، لولا أنه بحر يمتد أبداً لا يعرف الجزر ولا يدريه ، وكان قد بلغ أواسط آسيا وأواثل أوربا ، ولا يزال يمضى فى وجهه لا يقف حتى يطوّق هذه الكرة ، ويرفع عليها علم الحق والهدى ، ويوحدها حتى تمشى كلها إلى الفضيلة والمجد والخير ، صفاً واحداً ترفرف فوقه راية القرآن ... فجفا فروخ منزله ، وترك زوجه الحسناء تتقلب وحيدة على فراش المرس الذى لم تجف أزهاره ، وأودعها ماله كله ثلاثين ألف دينار تحفظها له إلى أن يعود من جهاده ، وقد قضى حتى

الله عليه فيستأنف الحياة معها رغيدة سعيدة. لم يدر فروخ أن جهاده فى حفظ زوجه وعصمتها وإنشاء أسرة صالحة ، خير له من أن يدعها وحيدة ، وأن يهجرها بعد أن أذاقها من كأس الحب الرشفة الأولى ...

* * *

ومرت الأيام ، ولبثت ليالى العقيق على أنسها وطربها ، ولكن سهيلة التى كانت تملأ الوادى أنساً وطرباً ، وتشيع فيه السرور والبهجة ، قد اختفت من سمائها كما تختفى النجوم فى الليلة الماطرة . أما رفيقاتها فلقد حرصن على أن يخففن من لوعتها ، وينسينها آلامها ، وسقن عليها أمينة رفيقة صباها وصاحبة سرّها ، وأحب الفتيات إلى قلبها ، فكانت تعرض عنها ، ولا تنظر إليها ، وكن يسألن أمينة عنها كل ليلة ، فتقص عليهنّ ما رأت منها :

— لقد جزت بها اليوم ، فاذا هى يا أسفى عليها قد تبدلت حتى كأنها لم تكن يوماً من الأيام سهيلة التى نعرفها. وجدتها قابعة فى زاوية المنزل تفكر هادئة وإن فى قلبها لناراً ما يقر قرارها ، تذيب الحشى ، وتأكل القلب ؛ فكلمتها فنظرت إلى بعينين ساهمتين كأنهما لا تبصران شيئاً ، فحاولت أن أعيدها إلىّ فسردت عليها أجمل ذكريات صباها . حدثتها عن ليالى العقيق ، وأطرفتها بنوادر أشعب ، وقصصت عليها أقاصيص الشاعر وعبثنا به ، بل لقد تلوت عليها أجمل أشعاره فلم تستمع . فحدثتها عن فروخ فرأيت جسمها يهتز ولونها يشحب شحوباً هائلا ، وألفيتها تحب حديثه لأنه رجْع أحلامها ، وصدى أفكارها ، ولكنها تفزع من حديثه لأنه يذكرها بآلامها . لقد حدثتها عنه ... فقطعت علىّ حديثي وقالت بلهجة حسبتها تجمع كل ما فى الدنيا من آلام وأوجاع : كلا ... إنه لن يعود ! ثم قامت عنى

ولو أن امرأة أخرى كانت فى مكانها لفسقت وانساقت فى طريق الفحشاء ، ولكن سهيلة فى دينها وتقواها وشرفها أمنع من أن يستهويها الشيطان ، وما أحسب إلا أنها ستجن إلا أن يتداركها الله برحمة منه

فينطلقن يفكرن فى سهيلة ، كيف يسعدنها وينتشلنها من قرارة آلامها ، فلا يجدن إلى ذلك من سبيل ...

* * *

وكانت سهيلة قد علقت من زوجها وهى لا تدرى ، فلم تكن إلا شهور حتى بدا عليها الحمل واضحاً ، فزادها ألماً على ألم ، فأمعنت في الفرار من الناس ، والبعد عن صاحباتها ، فضاعف الانفراد هواجسها وشجونها فكانت تتلفت أبداً إلى الشرق البعيد ، علّ نسمة من زوجها الحبيب تنعش فؤادها ؛ وتسأل الغادين والرائحين عن فروخ (أبى عبد الرحمن) فلا تجد علماً عن أبى عبد الرحمن . فتناجى البدر وتسأله عنه علّه يراه كما تراه هى وتحمل الرياح سلامها ، وتسائل الشمس إذا أشرقت لعل عندها من أخباره علماً . لا تفعل ذلك كما يفعله الشعراء ، فالشعراء يناجون البدر ويسائلون الرياح ، ليأتوك بالطريف العجيب من المعانى ، ثم ينامون آمنين مطمئنين ، ويهجعون ملء عيونهم ، ولكن سهيلة لم يكن يطيب لها منام ، ولا تقبل على طعام ، وإنما كانت حياتها كلها فى هذا الماضى القصير الذى نعمت به حيناً ثم خسرته وهي أشد ما تكون حباً له وشوقاً إليه. وطغى عليها الفكر حتى كادت تجن حقاً . فلم يجد من يعنى بها من صديقاتها ، إلا وسيلة واحدة إلى نجاتها : هى أن يستعن عليها بأحد الأئمة من

أصحاب رسول الله أو التابعين لهم باحسان ، يهديها ويرشدها ويداوى أمراض قلبها . وليس يغلب الحب إلا الدين ، ولا يجد الحب راحة نفسه وأنس قلبه إلا فى اللجوء إلى الله ، عن نية صادقة ، وإيمان متين . ولقد وجدت سهيلة راحتها فى اللجوء إلى الله فكانت تقضى أكثر نهارها فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى البقعة التى أذن الله أن تنقل من رياض الجنة ، فتستقر على الأرض بين محرابه ومنبره وألا يرى أزهارها ، ويشم عبقها ويذوق نعيمها إلا من صفا قلبه من العلل ، وتنزهت بصيرته عن العمى وأنشأ له التقى جناحين يطير بهما فى هذه الروضة من رياض الجنة ..

* * *

ومرت الأيام ... وغدا ربيعة طفلاً يدرج ، فصرفت سهيلة إلى تربيته همها ، ورضيت به نصيباً من الحياة . وكانت تحدثه عن أبيه ، وتصفه له كما كانت تراه بعين الحب ، وترقب عودته دائماً فلا تسمع بركب قدم من الشرق إلا تمنت أن تجده فيهم ، وتخيلت أى مفاجأة ، وأى دهشة ، وتصورت لقاءه إياها ، وبالغت فى التصور فرأت نفسها بين ذراعيه تقبله وتشم ريحه ، ثم تقصيه عنها بدلال ، وتعاتبه عتاباً موجعاً . ثم تقدم إليه ابنه ... ولكن الركب يصل ولا تسمع عن فروخ خبراً من الأخبار . وكبر الصبى وضاق ما كان بيدها من المال ، فكانت تصبر وترتقب لا تمد يدها إلى الكنز الذى ائتمنها عليه ، حتى لم يبق معها شىء ، فكانت تصبر هى وابنها على الضيق ، وتبيت على الطوى ، وتسلى ابنها وتحدثه عن أبيه ...

— غدا يعود أبوك ومعه المال الوفير ، فنعيش فى رغد وهناء ، ونستمتع بما أحل الله من الطيبات

— ومتى يعود أبى يا أماه ؟

عما قريب . إنه سيأتى مع الركب

وتعود إلى إنتظار الركب ، وتخيل اللقاء !

وفى ذات صباح ذهبت تسأل القادمين من خراسان ، وتصف لهم زوجها . فدنا منها رجل من القافلة وخبرها أنه شاهده بعينه قتيلا فى معركة من المعارك ...

فرجعت محطمة يائسة ، ولجأت إلى الله ، فأراحها الله باليأس ، واليأس إحدى الراحتين ، فقنعت بابنها ، ونذرت نفسها ومالها لتربيته وتنشئته على العلم والتقوى ، ووضعت المال بين يديه ، ينفقه على نفسه وإخوانه فى طلب العلم ، ويرحل به إلى الآفاق ...

* * *

ومرت الأيام والسنون ...

وتبدلت الدنيا ، وتغيرت الدول ، وأفل نجم بنى أمية ... ولكن البحر لا يزال يموج ويمتد ، ويغمر أرجاء من الأرض جديدة ، فيحمل إليها الحياة والخصب ، وتعيش فى ربيع دائم ، تحت راية القرآن ...

وبلغ الفتح فى الشرق ، أراضى الصين ، فرفرف عليها علم الاسلام أثر معارك هائلة اصطرع فيها الحق والباطل صراعاً عنيفاً ...

فى عشية معركة من المعارك ، خرجت منها الراية الاسلامية مظفرة منصورة ، وخفقت على بقاع جديدة طالما خفقت قلوب أهلها شوقاً إلى الحكم الاسلامى ، انصرف المسلمون إلى المعسكر يؤدون فى الليل واجب الذكر والعبادة ، كما أدوا فى النهار واجب الحرب والجهاد ، ويعطون أجسادهم حقها من الراحة ، كما أعطوا الأمة حقها من التضحية

والبذل ، ولقد كان هؤلاء المجاهدون جناً فى النهار ، رهباناً فى الليل ، وكانوا مثالاً للشرف والفضيلة والاخلاص . . .

ومضى الهزيع الأول كله ، ونام المجاهدون ولم يبق ساهراً إلا الحراس يجيئون ويذهبون من حول المعسكر ، ورجل آخر أصابه الارق فبقى مسهداً يحس كأن يداً خفية تهز قلبه فيخفق ويشتد خفقانه ، وتحمله على الرجوع إلى سالفات أيامه ، فإذا هو يذكر عالماً بعيداً متوارياً فى ظلام ثلاثين سنة ، فلا يطيق البقاء فى خيمته ، فيخرج إلى العراء ، فيجد الليل ساكناً موحشاً ، لايسمع فيه إلا نداء الحراس ، وأصوات الوحوش التى تزدحم على الجثث التى تغص بها ساحة القتال ، فيبتعد عنها ويناى عن المعسكر فلايعترضه أحد لأن الجيش كله يعرفه ، بل لعله أقدم جندى فيه ، لم يفارقه منذ سبع وعشرين سنة ، يتنقل فيها من ميدان إلى ميدان . . ومضى يمشى وحيداً حتى بلغ الوادى فجعل يجول فيه ، حتى بلغ قرارته . وكان يجرى فى الوادى جدول ماء له خرير وزئير ، يبدو فى الليل سريعاً مخيفاً ، فتركه وتسلق الجبل ، حتى بلغ قنّته فأشرف منها على الفضاء الواسع ، وكان الفجر قد كرب أن ينبلج ، فسرت خيوط ضعيفة من النور حيال المشرق فطفق يحدق فيها ، ويحس كأنه ينشق منها أريجاً يحيي نفسه وينعشها ، وجعل يحس بأن قلبه يرق رقة شديدة ، ونفسه يسمو ، وأن خيالات الحب تلوح لعينيه من وراء الأفق البعيد ، غائبة فى ظلام الماضى ، فجعل يتأملها ، فيبصر وجه سهيلة وقد وقفت على الباب تودعه ، وتسأله ألا يذهب ، فلا يبالى بها ويمضى لطيته ، وكانت ليلة قمراء — إنه يذكرها كأنها كانت أمس — ويذكر المقيق وأهله . . . ثم يفكر فى حاضره . إنه سيموت وحيداً شريداً لا يدرى به أحد . إنه لا يبالى الدنيا ولا يحفل الناس ، وحسبه أنه سيموت مجاهداً فى سبيل الله ، ولكن ألا يسأله الله عن زوجته ؟

وأحس فى تلك الساعة بإساءته إليها ، وانطلق يفكر فيها ، هل هى حية لا تزال أم هى قد ماتت حزناً وكمداً ؟ وهل هى فى المدينة أم رحلت فلايدرى أى أرض تقلّها ، وأى سماء تظلّها ؟ وهل بقيت على العهد بها ، أم قد استهواها الشيطان ووطأ لها أكناف المعصية ، والثلاثون ألف دينار ، هذا الكنز ، ماذا صنعت به ، هل احتفظت به أم أنفقته ؟ وإن تكن قد ماتت فماذا جرى على المال ، وأي يد ألقيت عليه ؟

وطفق يذكر ، ويقلب صفحات سبع وعشرين سنة . . . هجرفيها زوجته ، وتركها تتقلب وحدها على الفراش ، تفكر فيه كل ليلة وتشتاق إليه ، وتمنى نفسها بعودته فى صباحها ، تسعة آلاف وسبعمائة وعشرين ليلة . . . غبرت عليها وهي تتجرع كل ليلة منها هذه الكأس فماذا حملت من هم ، وماذا ذاقت من ألم ؟ وهل بقيت بعد ذلك فى الاحياء ؟

وتمنى لو أن مخبراً يخبره عنها وعن ماله ، ثم يطلب إليه ما يشاء ، وأحس كأن رأسه سيصدع من التفكير . ولكنه طفق يذكر على الرغم منه . .

ذكر كيف لبث أياماً وليالى لا تفارق صورتها مخيلته حتى واجه العدو وانغمس فى القتال ، فلم يكن يذكرها إلا حين يأوى إلى فراشه ، ثم أمعن فى الجهاد ، فلم يعد يذكرها أبداً وظن أنه لم يبق لها فى نفسه أثر حتى انفجرت ذكرياته كلها فى هذه الليلة انفجاراً . . .

وجعل يتخيل هذه الدهشة اللذيذة التي ستغمرها حين تراه قد عاد إليها ، ولم يقو على البقاء، وتمنى لو طار إلى المدينة طيراناً . لقد خرج منها وهو شاب مافى وجهه ولا فى رأسه شعرة بيضاء.. فأمسى وجهه ولحيته كالثغامة ؛ وتصور كرة أخرى أنه سيموت فاستفظع أن يموت ولا ير زوجته ، ولما يقبض ماله ، ولما ير العقيق ووادى النقا ومسجد الرسول . واشتد به الحنين، فأسرع من فوره إلى القائد يستأذنه بالقفول ..

* * *

عاد يطوي البلدان لا يستقر فى مكان ، ولا يقيم فى بلد حتى يعاوده الحنين فيدعه يوالى مسيره ، لا ينقطع لحظة عن التفكير فى زوجه وماله ، تلك الثلاثون ألف دينار ، ثروته كلها وكنزه الذى يبنى عليه الأمانى . إنه سيضم إليه هذه الأربعة من الآلاف التى جمعها من عطائه ومن نصيبه من الغنائم . وكان يتصور ألوان الممكنات لا يطمئن إلى صورة حتى ينتقل إلى غيرها ، لا يهدأ ولا يستريح ، وكان يخشى أن يدركه الأجل قبل أن يبلغ أمله، فيكز فرسه ويعدوها عدواً شديداً ، كأنما كان يسابق الموت... حتى إذا بدت له طلائع الجزيرة ، وبدت رمالها الأزلية التى أعجزت الجبابرة والفاتحين فلم ينالوا منها منالاً ، وأعجزت الحياة فلم تقدر عليها ولم تدخل حماها ولم تخرج فيها نبتة مخضرة ، وأعجزت الممات فلم يبدلها ولم ينل منها ، فهى كائنة من الكائنات الهائلة التى تعيش فوق أنظمة الحياة والموت ... لما بدت له هذه الرمال اطمأن إليها وأنس بها ، وأحس أن سمومها روح لقلبه ونعيم ، وأن شمسها المحرقة ظل عليه ظليل، وأن جبالها الجرداء وبيدها القاحلة رياض فى عينيه وجنات . وجعل ينذ السير فيها حتى بدت له جبال المدينة تلوح له على حواشى الأفق فلم يتمالك نفسه أن يصيح من الفرح ، ويطير إليها ...

* * *

رقص قلبه فى صدره حين بدت له طلائع المدينة تحيى، وأحس كأنه لم يرها قط بهذه البهجة وهذا الرواء. وكان ذهنه قد كل من التفكير فترك كل شئ للمقادير وانطلق يمد نفسه لكل ما تفجؤه به، وكان قد صار حيال (أحد) فوقف يتأمله وهو مأخوذ برونقه وجماله ، وهذه الألوان التى تمتزج فيها حمرة الرمال بزرقة الصخور وبياضها ، فيكون منها صورة فاتنة لا يمل الناظر من النظر إليها . وكان فروخ يجد في النظر إليه لذة ويذكر فيه عالماً مبهماً من الذكريات والمتع أنساه غايته لحظات ، استدار على أثرها فترك العقيق عن يمينه وكان خالياً فى تلك الساعة من النهار ... واستقبل (سلماً) الذى طلع عليه بسواده وظلامه فعاف النظر إليه ، وساق راحلته فاجتازت به مسجد ذباب ، فانكشفت له المدينة ورأى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن قد أنشئت عليه هذه القبة ، لأن القوم لا يزالون إلى ذلك العهد على السنة الصحيحة ، ولم تكن هذه البدع وهذه المظاهر قد عرفت طريقها إلى نفوسهم ، فذهب يؤم منزله وهو بسلاحه على راحلته ، وكان يعرفه كأنه قد فارقه أمس، ولم تتغير المدينة عن عهده بها كثيراً، ولكنه آثر أن يغلب هواه ويقهر رغبته ويبدأ بمسجد الرسول . ومنذا الذى يدخل المدينة ولا يبدأ بالسلام على رسول الله

سلم على الرسول ، وصلى فى الروضة ، ثم

تلفت فاذا هو بحلقة عظيمة ، تزدحم فيها العمائم ، فتطاول فلم يبصر وجه صاحبها ولم يعرفه ، فوقف يستمع فسمع عجباً أنساه الدار والمال والزوجة ، فظل فى مكانه حتى أذّن المؤذن بالعصر فانفضت الحلقة ، وذهب فروخ يصلى مع الجماعة فشغلته الصلاة عن كل شىء

لم ير فروخ المدرس ولم يعرفه ، فذهب يسأل عنه جاره ، قال له :

— من صاحب الحلقة التى كانت هنا آنفاً ؟

فحدق فيه الرجل وقال له :

— ألا تعرفه ؟ ألا تعرف ربيعة الرأى ؟ من أين أنت أيها الرجل ؟

— غريب ، قدم الساعة ، فمن ربيعة الرأى هذا؟

— هذا فقيه البلد وامامه . هذا شيخ مالك وسفيان الثورى وشعبة والليث بن سعد . الا تعرف هؤلاء ؟ هؤلاء هم علماء المسلمين ، وائمة الدنيا ، هذا الذى يجلس فى حلقته أربعون معتما من شيوخ الحديث ..

لقد زاره أبو حنيفة . ألم تسمع باسم أبى حنيفة أيها الرجل فكان مجهوده أن يفهم ما يقول ربيعة . أعرفت من هو ربيعة الرأى ؟ هـذا الذى انفق على نفسه وعلى طلبة العلم ثلاثين ألف دينار ، أرأيت مثل هذا ؟ أسمعت به ؟ إنه لم يجلس للناس حتى بلغ من العلم والعبادة مبلغ من يقول فيه عبيد الله ابن عمر هذا عالمنا وأفضلنا وصاحب معضلاتنا ، أتعرف من هو عبيد الله بن عمر أم أنت لم تسمع به ؟ ..

فقال فروخ : بلى لقد عرفت ، لقد عرفت ، وقام إلى فرسه وقد ارتبطها بباب المسجد ، فركبها وحمل رمحه وانطلق إلى داره ، وقد هاجت فى نفسه ذكرياته وشكوكه ، وعادت إليها صورة زوجته ، فاذا هو يبصرها للمرة الواحدة والسبعين بثيابها البيضاء تشير إليه ألاّ يذهب ، وصورة الثلاثين ألفاً . ماذا جرى عليها ، وأى جديد مفاجىء ستلقاه به المقادير ؟

ولم تكن داره نائية عن المسجد — فبلغها بعد قليل ونزل عن فرسه ورمحه بيده ، وهم بخفق الباب ، فاراعه الاشاب حسن الشباب ، مكتمل الفتوّة ، يخرج منه ، تشيعه امرأته . نعم امرأته ، سهيلة ، لقـد عرفها من النظرة الأولى ، برغم ما تغيرت ، ورآها بعينه تشيع هذا الشاب ثم تدخل وتغلق الباب فهاج دمه فى عروقه ، وأقبل عليه مزمجراً صارخاً ، فنحاه عن الباب وهم بدخول المنزل ، فعجب منه الشاب وصاح به :

— ياعدو الله ، أتهجم على منزلى ؟

— قال : بل أنت عدو الله ، تدخل على زوجتى ؟

وتواثبا وتلبب كل منهما بصاحبه حتى اجتمع الجيران ، وبلغ مالك بن أنس والمشيخة ، فأتوا يمينون ربيعة ، فجعل ربيعة يقول :

— والله لا أفارقك إلا عند السلطان .

وجعل فروخ يقول :

— والله لا فارقتك إلا بالسلطان ، وأنت مع امرأتى .

وكثر الضجيج . فلمـا أبصروا بمالك سكت الناس كلهم ، فقال مالك :

— أيها الشيخ ، لك سعة فى غير هذه الدار .

قال الشيخ :

— هى دارى وأنا فروخ مولى بنى فلان .

فسمعت امرأته كلامه ، فخرجت فقالت : هذا زوجى ، وهذا ابنى الذى خلفته وأنا حامل به ، فاعتنقا